العرب قبل الإسلام

من هم العرب وأقسامهم

يعرف المعجم الوسيط العرب فيقول : " العَرَب : أُمة من الناس سامية الأصل ، كان منشؤها شبهَ جزيرة العرب . والجمع : أَعْرُبٌ والنسبُ إليه عَرَبِيٌّ " .

ويقسم معظم المؤرخين العرب إلى أقسام ثلاثة :

العرب البائدة : قوم عاد ، وقوم ثمود ، وهم أول من تحدَّث العربية ، وسموا بالبائدة لان الله تعالى قد أبادهم لما كفروا به وكذبوا رسله وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٤ – ٨]

يقول ابن كثير في تفسير ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ ؟ أي : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً " .

والمؤرخين يلحقون بالعرب البائدة قبائل : طَسْمٍ ، وجَدِيس ، وجُرْهُم وغيرها ، وهذه القبائل لم تهلك بالطاغية ولا الريح الصرر العاتية كقوم

عاد وثمود إنما بادت كما يقول المؤرخون بفعل عوامل كثيرة منها العوامل الطّبيعية مثل البراكين وغيرها .

أمّا القسم الثاني من العرب فهم العرب العارِبة : وهم الصُّرحاءُ الخُلَّص الذين تكلَّموا بلسان يعرُب بن قحْطان الذين سكنوا الجزيرة العربيّة وبلاد اليمن، وأقاموا مملكة حمير وسبأ .

والقسم الثالث من العرب هم المُسْتَعْرِبة ، أي الذين اكتسبوا العربية من مخالطتهم للعرب العاربة، ومنهم إسماعيل عليه السّلام الذي خالط قبيلة جُرْهُم العربية الأصيلة فتعلَّم منهم العربيّة وكلمة اسْتعْرَبَ في اللغة معناها : صَارَ دخيلاً في العرب ، وجعل نفسَه منهم .

ولابن خلدون تقسيم آخر للعرب سوف نتعرض فيما بعد ، ونحن لا يعنينا من العرب في هذا الكتاب إلا الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية بنحو قرنين من الزمان .. الذين يُطْلَق عليهم العرب الجاهليون .

العرب والجاهلية

للجاهلية معنيان : معنى لغوي نسبة للجهل الذي هو ضد الحِلْم وعلى هذا فالجاهلية تعني الطيش والسفه والحمق والتهور والحمية والقسوة والغلظة .

والمعنى اللغوي الثاني هو الجهل الذي هو ضد العلم والمعرفة .

وإذا بحثنا عن معنى كلمة جاهلية في أشعار العرب القدماء فإنها تعني المعنى الأول الذي هو ضد الحلم لا الجهل الذي هو ضد العلم .

يقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أي لا يشتد علينا أحد ولا يخطئ في حقنا حتى لا نعاقبه بأشد مما يريد فعله بنا .

ويقول الفرزدق:

أحلامُنا تَزِن الجبالَ رزانةً وتَخالُنا جنّاً إذا ما نجهل

وهكذا ربط العرب بين الجهل والحلم في شواهد كثيرة .

أما معنى الجاهلية الاصطلاحي فيطلق على حال الأمم قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً مع حالها بعد البعثة النبوية وظهور الإسلام. فقد كان الجاهليون أصحاب عقائد فاسدة وعادات قبيحة وأخلاق مذمومة جاء الإسلام ليحاربها ويقضي عليها ، فقد تفشت فيهم عبادة الأوثان والأصنام ، ووأد البنات ، وشرب الخمر ، وإشعال الحروب على أتفه الأسباب ، ونصرة الأخ ظالماً ومظلوماً ، والتعصب للقبيلة ، والكبر والتكبر و....

وممّا يزيد هذا التصور وضوحاً قول النبي لأبي ذَرّ الغِفاري وقد عيَّر رجلاً بأمّه: " إنّك امرؤ فيك جاهليّة»، وفُسِّر مدلول الجاهلية بأنه الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله، وشرائع الدين والمفاخرة بالإنسان والكِبْر والتجبّر وغير ذلك .

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع لعل أهما الخمر واستباحة النساء والقمار ، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان ، وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها وقد شدد في عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهي عن

الخمر والميسر ... وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بالثأر ، فهدمه هدما وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد .

بدو العرب

البدو هم سكان البادية الرعاة الرُّحَّل من العرب الذين يسكنون الخيام ويعيشون على رعي الإبل والماشية ويتنقلون من مكان لآخر طلباً للماء والكلأ .

يعيش البدو على الرعي بشكل أساسي، وكذلك تربية الإبل والأنعام وتجارتها ، والبدو منتشرون في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربيَّة والصحراء السورية وغرب العراق وسيناء والنقب والأردن وفلسطين المحتلة وفي الصحراء الشرقيَّة والصحراء الغربيَّة من شمال أفريقيا .والحياة في الصحراء تتيح للبدو ممارسة نمط حياتهم التقليدي بعيداً عن مؤثرات التمدن .

والبدو لا يتقيَّدون – غالباً – بحدود جغرافيَّة ، فحيثما يوجد الماء والكلأ يشدُّون الرحال إليه في قوافل جماعيَّة أو فرديَّة. ووسيلة النقل لديهم سفينة الصحراء الإبل .تنفذ هذه الرحلات بتحديد موعد مسبق مع الجيران أو تأتي مفاجأة لأصحاب المنزل الواحد أو عدة منازل حسب الاتفاق الذي يتم بينهم .

في هذه الرحلات يكابد البدو الكثير من المصاعب والمتاعب، لأنهم أحياناً يقطعون مسافات بعيدة مشياً على الأقدام .وتُحْمَل الأمتعة الأثقال وأفراد القبيلة غير القادرين على السير على ظهور الإبل، وتكون بداية

الرحيل أو الظعن وقت الصباح، والملتقى بين أفراد الأسرة الواحدة وقت المبيت في مكان ضرب موعده سابقاً. وهكذا يكون تخطيط سير الرحلة حتى يصلوا المكان المقرَّر للسكن وفيه يضعون رحالهم لفترة تطول أو تقصر غير محددة بمدة زمنية معلومة. وهكذا تستمر حياتهم في تنقل وترحال دائمين، كما أنهم ينتقَّلون في فصل الشتاء إلى الأماكن التي تتوفر بها الأشجار بكثرة وقاية وحماية لهم ولحيواناتهم من نزلات البرد الشديد وتقلبات الرياح القارسة. أما في فصل الصيف فيرحلون إلى الأماكن التي يتواجد فيها الظل والماء .

والمصريون سكان الوادي والدلتا حضريون وليسوا بدواً على الأقل منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وإن كان هناك بدو عاشوا في سيناء والصحراء الشرقيَّة والغربيَّة أو على هامش المدن لكن نسبة ضئيلة لا تذكر كما أن معظمهم من القبائل الساميَّة .

الفرق بين العرب و الأعراب (البدو)

الأعراب أو البدو هم سكان الصحراء يعيشون على رعي الأنعام :

الإبل والبقر والضأن والمعز ، يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلونَ﴾ [المؤمنون : ٢١، ٢٢] ويركبون ظهورها ، وتحمل عنهم أمتعتهم ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾[النحل:٧]

ومن جلودها يصنعون بيوتهم ، ومن أصوافها ومن أوبارها وأشعارها يصنعون أثاث بيوتهم ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن

جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل : ٨٠]

أما العرب فهم سكان المدن كاليمن ، مكة ، الطائف ، يثرب ، واليمامة ... وكانوا يعتمدون في حياتهم على التجارة ، وبعض الحرف اليسيرة ، والزراعة وهم أرقُّ طَبْعاً من الأعراب (البدو) .

وقد اتخذ الرومان وخلفاؤهم من البيزنطيين من العرب الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين العرب البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ، فهم مثل الميلشيات اللبنانيَّة التي كانت موالية لإسرائيل بعد اندلاع الحرب الأهليَّة في لبنان ، وبالمثل فقد اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة العرب المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو ، وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان.

وبين البداوة والحضارة فَرْق أساسيٌّ واحد: فبينما يكتفي البدويُّ بالضروريِّ من أسباب المعاش، فإن أهل الحضر يتوسَّعون في أسباب الترف من المطاعم والملابس والمساكن . ومن هذا الفَرْق الأساسيِّ تتفرَّع جميع خصائص البداوة وجميع خصائص الحضارة المدنيَّة بما في البداوة وفي الحضارة المدنيَّة من المحاسن والمساوئ .

وفي هذا يقول ابن خلدون : " الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم .. أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح

والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي .. [١]

ويقول د. عبد الحميد يونس عن طبيعة البادية العربية وسكانها من البدو سمات البدو " وأرض نجد جزء من الهضبة الصحراوية تتألف من الأحجار الاولية تغمرها الرمال وتكتنفها جبال بركانية ، أما مظهرها العام فبين السهل الأخضر والجبل الأجرد والبادية الصفراء ، وليست بها أنهار بالعنى الصحيح فهي تعتمد في معظم وجودها على المياه الجوفية تستخرج من العيون التي يتراوح عمقها بين عشرين وثمانين قدماً ، وقد تنبطح هذه العيون فتشبه بالمسايل والأنهار ، وقد تجف أو تغور في مجرى أسفل فتتعرض الحياة حولها إلى التلف والهلكة إلا أن يفر القادرون على الحركة إلى مكان تستطلع فيه الإفادة ولو إلى حين .

ومن ثمَّ اعتمد الأحياء في هذه الأرض على مطر الصيف والشتاء ، ويعرف أولهما بالموسمي ، وهو الذي يبعث الحياة في المروج والمراعي التي صهرها القيظ ويزيد الثاني اليابسة بنضارة الربيع ، ويفسر هذا الكلم المأثور " سقى الله من ربيع وصيف " .

وكان في أرض نجد غاب مشجر مشهور كغاب شربة (جنوبي وادي تهامة) ووجرة وغيرها . ولعل الجفاف والسيل قد أتيا على معظمها وجوها قلب ، يبرد إلى الجمد في الشتاء ، ويسخن إلى حد لا تكاد تطيقه في الصيف .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٢١ .

هذه البيئة المادية قد طبعت أولئك النجديين من هلالية وغير هلالية بطابعها فجعلتهم كاسمهم أدنى إلى الجبليين بسطة جسم وصلابة عود وقوة شكيمة إلى كثير من الاستعلاء والنزوع إلى الاعتداء مع قدرة على الحرمان وخصوبة في الإنجاب ، ليست فيهم سهولة أهل البسيط من الأرض ، ولا لين جانبهم ولا دماثة خلقهم ، وقلما يعرفون الوطنية معرفة المستقر الآمن صاحب التراث المكين ، وهم أهل عاطفة تستبد بهم السورة إذا اعتقدوا في شيء تشبثوا به آخر العمر ، وتشددوا في الدفاع عنه ، وطلبوا إلى عيرهم أن يعتقدوا فيه راغمين .

ومن اليسير أن نلم بسيرة أهل الوبر هؤلاء لأنهم كانوا يعيشون في مرحلة ثقافية لمّا تبلغ الحضارة التي عهدناها في الأمم القديمة ، وكانوا متفرقين عشائر وقبائل وأحلافاً أساسها الأسرة ، وقد لونت ظروفهم الطبيعية حياتهم وجعلت تاريخهم يقوم كله أو اكثره على الصراع بينهم وبين الطبيعة ، وهذه المرحلة الثقافية هي التي يعرفها العلماء بالمرحلة الرعوية التي انتهى فيها الإنسان من تأليف الأنعام واستئناسها والاعتماد عليها في جميع شئونه . " [١]

لغة البدو

" وإذا انتقلنا إلى المجال اللساني فسوف نجد أن هؤلاء الأعراب لهم لهجة دارجة إذا شئت ، يتفاهمون بها في حياتهم اليومية ، إلى جانب اللهجة الفصيحة العامة التي كانت بمثابة اللغة الأدبية أو الدبلوماسية بين سائر الجماعات في الجزيرة العربية ، وهي التي كانت مناط التفاهم

(١) د . عبد الحميد يونس " الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي " كتب عربية ص ٢٠ ، ٢١ .

في المحافل والأعياد والأسواق العامة عندما تتداعى هذه الوحدات المختلفة أبداً إلى سلم دائم أو مؤقت في مكان حرام أو شهر حرام ، ولكننا لم نصل إلى مدونات هذه اللهجة كما وصلت إلينا مدونات اللهجة الفصيحة العامة ، وانحباس الجزيرة العربية عن الغرباء أمداً طويلاً لم يشجع العلماء الأنثروبولوجيين أو اللغويين على التقاط ما بقي في ألسنة النجديين المحدثين من تلك اللهجة ، وكل ما يستطاع أن يتبين الآن مستمد من القراءات أو الروايات المأثورة عن اللهجات ، على قلتها بل ندرتها ، وهو يفيد أن هؤلاء الأعراب كانوا من أفصح الناس لغةً وأنهم ظلوا كذلك أجيالاً مما يدل على أصالة أرومتهم العربية من ناحية ، وقرب لهجتهم من اللفة الفصحى من ناحية أخرى " [١]

حياة الأعراب الاقتصادية

وحياة العرب البدو حياة ترحال دائم لا تعرف الاستقرار ففي مواسم المطر يسوقون أنعامهم إلى حيث منابت العشب والكلأ أينما وجدت ، ولا يتركونها إلا إذا أجدبت ، وعندما ينتهي موسم المطر يعودون إلى مواطنهم .

ووراء المجتمع المكيِّ كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدويَّة تعتمد على رعي الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضِّلون شيئاً على حياتهم الرعويَّة البدويَّة، لا يفضِّلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونها ويزدرونها فلا حياة تعدل عندهم حياة البساطة والحريَّة التي لا تحدُّ . ووقفت الصحراء

(١) د . عبد الحميد يونس " الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي " كتب عربية ص ٢٦ .

تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم سوراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراويَّة . ، وهي حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه في وسطه منطقة وقد تلفُّه عباءة وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيَّات، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوي ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التي كانت تلقي في روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعالي والجن والغيلان ، وفي تضاعيف ذلك كان العرب يتربَّص بعضهم ببعض إذ كانت حياتهم حياة حربيَّة داميَّة وكاد أن لا يكون هناك حيٌّ أو عشيرة بل وأسرة إلا وهي واترة موتورة . (١)

الحياة في بوادي سيناء

ولقد عشت في سيناء في " أم خشيب " تحديداً حياة كهذه عام ١٩٩٠م ورأيت مدى قسوة الطبيعة وشظف العيش وجبال المخاوف والأوهام فإذا اشتدت الحرارة نهاراً ، وهي دائماً ما تشتدُّ ، فهي من فحيح الجحيم ، وإذا اشتدت البرودة ليلاً ، وهي دائماً ما تشتدُّ ، فهي من زمهرير جهنم ، وإذا أظلم الليل وغشانا ظلامه استحال الغثاء الأحوى إلى غيلان وعفاريت ، وداهمتنا الهوام والحيّات وعشنا تحت رحمتها حتى يدركنا نور الصبح الذي يأتي دائماً متأخراً جداً ، أما إذا هبَّت

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٧٧، ٧٨ دار المعارف . الطبعة العاشرة

العاصفة فإنها تطفئ نور الشمس في رابعة النهار، وإذا هطلت السماء فهي شلالات ونصير نحن وما نملك كغثاء السيل ، أما الطعام والشراب فإذا ما وجدت ما يسد الرمق صباحاً فلا تنتظرن رائحته في المساء . إن منتهى أملك في هذه الأجواء فحسب أن تبقى على حياتك ، ولا همَّ لك سوى ذلك ؛ فأنت دائماً مدجَّج بالموت تنتظره في كل آن وحين فإن لم تمت بقسوة الطبيعة متَّ بلسعة هوامها أو طعنة صعاليكها .

وهذه الأجواء تؤجِّج الخيال وتتعش أحلام اليقظة وتجعلك ترى رغيف الخبز الجاف كمائدة بني إسرائيل ، وقطرات الماء العكر عيناً سلسبيلاً، والحيزبون حور عين تلهمك عيون شعر الغزل العفيف ؛ فأنت لا ترى سوى عنين وسط ركام من أشباه الملابس . وأكاد أجزم أن عبلة حبيبة عنترة ، وعزة محبوبة كثيِّر ، وبثينة معشوقة جميل ما هن إلا كالعُزَّى التي قتلها خالد بن الوليد بعد فتح مكَّة وكما أن العرب عبدوها دون أن يروها على حقيقتها كذلك هام هؤلاء الشعراء في محبوباتهم حباً وأنشدوهن شعراً دون أن يرونهن على حقيقتهن أو يرين غيرهن من النساء .

ولكن هذه الصورة للطبيعة الجغرافيَّة والمُناخيَّة ولحياة البدو في أم خشيب أو وسط سيناء تختلف تماماً وجذريّاً عن طبيعة الوادي والدلتا حيث المناخ المعتدل صيفاً وشتاءً وحيث نهر النيل وضفتيَّه الخضراوان وحيث أقدم حضارة في التاريخ، بل تختلف الحياة قي وسط سيناء عن شمال وجنوب سيناء حيث العمران والتمدُّن .

وسائل كسب الأعراب

نعود إلى بدو الجزيرة العربيَّة نبحث عن وسائل كسب الأعراب عيشهم كان الشعر يمدحون به السادة والكبراء من عرب الجزيرة فينالون عليه العطايا السخيَّة ، وكبار الشعراء قصدوا ملوك المناذرة والغساسنة فمدحوهم ونالوا عطاياهم كامرئ القيس، النابغة البياني ، وأوس بن حجر ، ولبيد ، المثقب العبدي ، والأعشى ، والمرقش الأكبر ، وحسان بن ثابت ، وعلقمة بن عبدة ...

ونوع آخر اتَّخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش : وهو الغارة والسلب، يغيرون على قبيلة معادية – وكثيراً ما تكون المعاداة بين القبائل – فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربَّص بهم القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا ، بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم .. ومن أجل هذا كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت إلى الاحتماء بقبيلة قويَّة تذود عنها ، ولكن قلَّ أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنقصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين .

وأفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * في النائبات على ما قال برهانا (١)

فلم تكن حياة الأعرابي تقوم على الرعي فحسب بل كانت تقوم أيضاً على السلب والنهب وقطع الطريق وذلك لأنه لم تكن هناك عدالة

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " ص ١٩ بتصرف يسير .

اقتصاديَّة في توزيع الموارد لذا فقد كان يلجأ الفقراء المعوزون تحت وطأة الجوع إلى قطع الطرق ، والإغارة .

وقد تحوَّلت هذه الحياة الحربيَّة من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذي كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء . (١)

والبدو يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة فليس لهم من القدرة العقليَّة أو المهارة اليدويَّة أو الهمَّة الفاعلة أو الخبرة المكتسبة ما يؤهلهم للقيام بهذه الأعمال لذا لم تقم على أرضهم أيَّة حضارة أو أي مظهر من مظاهر الرقي .

حياة الأعراب الدينية

والبدويُّ (الأعرابيُّ) ضعيف الإيمان بدين ، فهو لا يؤمن إلا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمواْ حدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٧]

وبرغم أن أعراب الجزيرة العربيَّة كانوا يعلمون أن هناك إلهاً خلقهم وخلق السموات والأرض وسخَّر الشمس والقمر إلا أنهم كانوا يتَّخذون الأصنام التي نحتوها لكبرائهم الجوَّادين أو للملائكة المتخيَّلين أو لغير ذلك وسيلة يتقرَّبون بها إلى الله !!

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

---

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " دار المعارف ص ٧٨

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]

إذن هم يعترفون بالله الخالق الرازق ، ولكن مشكلتهم أنهم ،اعتزازاً بشيوخهم وكبراء قومهم ، اتخذوهم شفعاء عند الله ليتقرَّبوا بهم إليه .

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣]

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ [يونس : ١٨]

والناظر في سيرة أشهر المعبودات في الجاهليَّة يجد أن من يعبدونها يزعمون أنها كانت لأشخاص ذوي فضل وأيادٍ ؛ فخلعوا عليهم أسماء الله تعالى بعد أن نقصوا فيها وزادوا مثل : اللات والعزى ومناة .

وذكر المفسِّرون ما روي عن ابن عباس في إلحاد كُفَّار العرب في أسماء الله تعالى أنهم سموا بها أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فاشتقُّوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان .

" كَانَ اللاتُ رَجُلا يَلُتُّ سَوِيقَ الْحَاجِّ " [رواه البخاري]

يلت السويق : أي يبس الطعام المصنوع من الحنطة والشعير بالماء ونحوه ؛ ليطعم حجاج الكعبة .

وعن مجاهد قال : " كانت اللات رجلاً في الجاهليَّة على صخرة بالطائف وكان له غنم فكان يأخذ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حَيْساً ويطعم من يمر من الناس ، فلما مات عبدوه وقالوا : هو اللات."

الحَيْسُ : تمرٌ وأَقِطٌ وسمنٌ تُخلَط وتُعجَن وتُسوَّى كالثَّريد .

وعن ابن عباس أنه قال : كان اللات يلت السويق على الحاج فلا يشرب منه أحداً إلا سمن فعبدوه .

وعن ابن جريج في قوله { أفرأيتم اللات } قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أخذ عدواناً .[١]

وأما " مناة " فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المشلل ، بين مكة والمدينة، وكانت قبيلة خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظِّمونها ويهلُّون منها للحج إلى الكعبة . قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن دماء الذبائح كانت تمنى عندها ، أي: تراق وتسكب .[٢]

وكما ترى أن العرب كانوا يعتزُّون أشد الاعتزاز بالكرماء الجوَّادين الذين يطعمون الطعام ويقرون الضيف ويغيثون اللهفان ويحمون من ينزل بساحتهم خاصة حجيج بيت الله الكعبة ؛ لذا عبدوهم بعد موتهم أو اتَّخذوهم شفعاء عند الله لعظم مكانتهم لديهم ، وهذا بسبب ما كان يعانيه العرب من قسوة الحياة وشظف العيش وفقدان الأمن وتعظيم بيت الله ، وخاصة البدو منهم فمن كان يجود عليهم بالطعام كأنه يجود عليهم بالحياة ومن أجارهم من عدوهم فكأنما صرع شبح الموت الرابض فوق رءوسهم .

لذلك الله تعالى طلب منهم أن يعبدوه وحده لأنه هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

---

(١) جلال الدين السيوطي تفسير " الدر المنثور" ج ٩ ص ٣٢٣

(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ٤٠٠٢

﴿لإيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش : ١-٤]

فإذا كنتم أيها العرب تعظِّمون الكرماء الذين يجودون عليكم بما يبقي على حياتكم من طعام خاصة من انقطعت بهم السبل من حجيج الكعبة، وتعظِّمون الفرسان الذين يحمونكم من غارات المعتدين فالله تعالى أهلك أبرهة الأشرم الذي جاء ليهدم الكعبة من أجل أن يؤلِّف قريشاً زعيمة العرب وحامية بيته الحرام ، ويبقي لهم رحلتي الشتاء والصيف التي لولاهما لهلكوا لأنهم قوم رعاة في أرض قاحلة غير ذات زرع ﴿رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم﴾ وهو الذي جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض ، يقدِّمونها لحماة بيت الله على سبيل تبادل المنفعة تارة وعلى سبيل الصدقة تارة أخرى فإن لم تعبدوا الله من أجل نعمه التي لا تحصى ، فاعبدوه من أجل أن جعلكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين في أمان واطمئنان ، وأنه جمع شملكم ، وألف بينكم، وحماكم من أعدائكم ، ومن أجل أنه تعالى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويرفع الضر عنكم إذا مسكم .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]

متى كان العرب الجاهليون يلجئون إلى الله ؟

وكان العرب يلجئون إلى الله تعالى الواحد الذي لا شريك له إذا أصابهم ضر ويجأرون له بالدعاء إذا نزل بهم كرب وجاء في السِّيَر أن عكرمة بن أبي جهل هرب عند الفتح، وركب سفينة، فاضطرب بهم البحر فقال ملاحها: أخلصوا الدعاء لله وحده الآن، فإنه لا ينجي من هذا إلا الله، فقال: عجيب! إذا كان لا ينجي في البحر إلا الله فلا ينجي في البر إلا هو، لله عليَّ إن أنجاني الله من هذه لآتين محمداً، ولأضعنَّ يدي في يده، ولأجدنه رءوفاً رحيماً .

قال عكرمة بن أبي جهل هذا مع أنه كان يركب السفينة مع جماعة مشركة تعبد الأصنام، ومع ذلك فإنهم عند الشدة لجئوا إلى الله وحده لا شريك له سبحانه .

لذا لا عجب أن العرب لم يلبثوا طويلاً بعد ظهور الإسلام أن دخلوا في دين الله أفواجاً ريثما تخلصوا من عاداتهم القديمة التي أفسدت عليهم عبادتهم لله الواحد الأحد .

وحقائق التاريخ تؤكد أن العرب لا يصلحهم إلا الدين ولا يوحد بينهم إلا شريعة الله ، ولا يستعبد قلوبهم إلا الإحسان ولا ينفرون من شيء قدر نفورهم من عَضَل الدين وقهر الرجال .

وهذا ما لم يدركه حكام الوادي في تعاملهم مع بدو سيناء فإنهم لم يوفِّروا لهم متطلبات حياتهم وهي يسيرة ، ولم يوفِّروا لهم أسباب الأمن وهي ضرورة ، ولم يعاملهم بكرامة وهي مطلب رئيسي ؛ فعاداهم بدو سيناء بدلاً من الخضوع لحكمهم .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

هل كان العرب يتطلعون إلى دين جديد ؟

يقول العقاد في عبقرية محمد واصفاً حال العرب في الجاهلية : " فمن هنا نعومة العيش والطمع والخمر والقمار والمتعة وتسخير الأقوياء للضعفاء. ومن هنا الفقر والحسرة والشك في صلاح الأمور .

ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذي يستريح ويهدأ فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير ، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه .

اجتمع أناس بِنَخْلَة لإحياء عيد العُزَّى، فقال رجل منهم لإخوانه :

" والله ما قومكم على شيء، وإنهم لفي ضلال، فما حجر نطوف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه تذبح القرابين ؟ يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين، الذي أنتم عليه ، ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فأسلم .وكان الذي تنصَّر وسمع دعوة الإسلام ورقةَ بن نوفل، الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي، عند ظهوره، ويلقى إليه بالبشارة .

هؤلاء شكُّوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير.. "

والحقيقة التي يقررها القرآن وتبينها السيرة النبوية هي أن العرب قبل بعثته ﷺ كانوا في ضلال مبين ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ " أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ

مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ " [صحيح مسلم]

ولقد عاد العرب النبي ﷺ وحاربوا دعوته بشتى السبل كما هو معلوم لعامة المسلمين وخاصتهم وأن الحنفاء الذين تحدث عنهم العقاد نفر قليل لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ، والذين آمنوا بالنبي ﷺ عند بعثته كانوا في جملتهم ليسوا ممن قادهم الشك في عقائد الجاهلية إلى الإيمان بالدين الجديد إنما قادتهم فطرهم السليمة وإيمانهم بأمانة النبي ﷺ وصدقه ثم تفكيرهم الحر المنزه عن الهوى والعقاد نفسه قال عن أبي بكر الصديق إنه " آمن بمحمد النبي وليس بالنبي محمد " .

ويمكن أن يقال هذا عن خديجة وعلي وعثمان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار عدا قلة نادرة مثل ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وسلمان الفارسي ...

والاجتماع الذي ذكره العقاد لم يكن اجتماعاً دوريّاً كما حاول العقاد أن يوهمنا بل قال ابن اسحاق : " اجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنمٍ من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنةٍ يوماً، فخلص منهم أربعة نفرٍ نجيا، ثمّ قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما

قومكم على شيء ! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجرٌ نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم، التمسوا لأنفسكم دينا، فإنّكم والله ما أنتم على شيء. فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم " (١)

وهناك رواية ثانية لهذا الاجتماع ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن الخرائطي عن عروة بن الزبير وهاتان الروايتان لا تصحَّان ، وعلى فرض صحتهما فإنهما لا يؤيدان ما ذهب إليه العقاد من أن أصحاب الرأي كانوا دائمي الحديث حول الشك في عقائد الجاهلية متى اجتمعوا إنما الأمر مقصور على اجتماع واحد مجهول الزمان وعلى أربعة نفر فقط ، أسلم اثنان منهما بعد ذلك وهما : ورقة وعبيد الله ، ولم يسلم الآخران .

كما لا تفصح الروايتان عمن تكلّم في الاجتماع من هؤلاء الأربعة . كما أن رواية ابن كثير تشتمل على أسطورة بيِّنة الوضع فالصنم الذي اجتمع هؤلاء النفر عنده كان ينقلب ثم يعدلوه تكرر ذلك أربع مرات وفي المرة الرابعة لما استوى هتف بهم هاتف من الصنم جهير وأخبرهم شعراً أنه انقلب بسبب مولود أنار بنوره الشرق والغرب وارتعدت له ملوك الأرض وطفئت نار فارس وبات شاه الفرس في أعظم الكرب ، وكفت الجن عن إخبار الكهان بالغيب ، ثم ينهي مقطوعته الشعرية قائلاً : فيا لقصي ارجعوا عن ضلالكم .

والرواية بيِّنة الوضع . وقال علماء الحديث هذا حديث موضوع في إسناده وضَّاعان هما عبد الله بن محمد البلوى، وعمارة بن زيد.

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

يقول العقاد عن العرب قبل الإسلام أيضاً : " عالَم يتطلع إلى نبي، وأمَّة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي " .

والحقيقة لم يكن العالم كله يتطلع إلى نبي فقد كان هناك طوائف كثيرة : أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء، رجال ونساء ، سادة وعبيد وكان هؤلاء وأولئك غافلين لا يسعون لمعرفة الحق ولا يبحثون عن حقيقة وجودهم ولا الحياة التي يحيونها فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً " إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ "

[صحيح مسلم]

وقليل .. قليل أولئك الباحثون عن الحق الراغبون في الهداية والذي يؤكد هذا أن أكثر الناس لم يؤمنوا ببعثته ﷺ عندما بُعِث بل أنهم عادوه وحاربوا دعوته وعذبوا أنصاره ولو كانت مكة تتطلع إلى نبي كما قال العقاد لأسرع أهلها إلى الإيمان به عندما دعاهم للإيمان ولكن ما آمن معه إلا قليل ممن سلمت فطرتهم من أدران الكفر وسلمت عقولهم من هوى النفس ووسوسة الشيطان والتعلق بزخرف الدنيا. وبعض ممن أعلنوا إسلامهم بعد أن عزَّ الإسلام وقويت شوكته كانوا من المنافقين أو المرائين أو الفاسقين ولم يكونوا من المؤمنين الشاكرين .

وضع المرأة في الجاهلية

والعربي يحتقر المرأة ويحطُّ من شأنها وهي دون الرجل الذي يدافع عن القبيلة ويحميها ويكتسب لها ، أما هي فتحتاج لمن يحميها ، ويكتسب لها ، وإن وقعت في الأسر جلل العار القبيلة كلها ، ولقد حكم القرآن الكريم بسوء الحكم على تصرفهم بإزاء المرأة فقال تعالى ﴿وَإِذَا

بشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩]

بل إن بعض القبائل العربيَّة امتدت أيديهم الآثمة لتئد الإناث ، وتواري البنات التراب بما لم يؤثر عن أحد من العالمين فعله !!

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩]

كان عند العرب نوعان من النساء : إماء وحرائر ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقيان يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة .

وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، ولم يكن شيء يثيرهم كسبي نسائهم فكانوا يركبون وراءهم كل وعر حتى يلحقوا بهن وينقذنهن ويغسلوا عار سبيهن عنهن . وكان جمال النساء يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من طيب وحلي وثياب ، وكانوا يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض المعاهد والمنازل ويمزجون ذلك بالدموع"[1]

هل كان العرب قبل الإسلام أمة

يقول العقاد في عبقرية محمد : " وبين هذه الدول المنهارة أمَّة ليست بذات دولة ولكنها تتأهَّب لإقامة دولة هي أمَّة العرب "

([1]) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٧٢، ٧٣ بتصرف

يعرف المعجم الوسيط الأمة بأنها : " الأُمَّة جماعة من الناس أكثرهم من أَصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ، ومصالح وأَمانيٌّ واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان ، يقال : الأُمة المصرية، والأُمة العِراقية "

وبناء على هذا التعريف فإن العرب لا يعدون أمة وإن جمعهم أصل واحد وصفات مورثة ولغة واحدة ؛ لأنهم لم يجتمعوا على مصالح وأماني واحدة ، ولم يجتمعوا على دين واحد ولا مكان واحد إنما هم قبائل متفرقة في جزيرة العرب ليس لها حاكم يخضعون له ولا قانون يلتزمون به ولا مكان ثابت يستقرون فيه فمعظمهم بدو رحَّل ولم يصبحوا أمة إلا بعد ظهور الإسلام وإيمانهم برسوله الكريم ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣]

لم يكن العرب في سبيلهم لإقامة دولة قبل بعثته ﷺ فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم المتحضِّرة قديماً وحديثاً ، ومردُّ ذلك إلى النزعة الفرديَّة التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة حاكم عام ضعفاً وجبناً ، فقبول حكم صادر من غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد .

وفي ذلك يقول محمد فريد وجدي : " أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تتهيأ لجمع شتاتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبي ﷺ ، فهي دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإن أمة تدب فيها هذه روح ولا تُؤْثر عنها كلمة فيها بيت من الشعر أو أية حركة تنم عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل

صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاءوا أن يختلقوا ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفي أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير إليه " [١]

نظام العرب الاجتماعي

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبنائها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبيَّة المجاورة وخاصة الحبشة ، والمولى وهم عُتقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائمهم وجناياتهم ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعي للأنعام والأغنام فتلك كانت موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين يملكون شيئاً . وتحوَّل كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع طرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما. وما كانت تقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكف السماء عن غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحل فلا يكون لهم سوى شن الغارات . [٢]

وكان الرابط الذي يوثِّق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبيَّة ، وهي عصبية قبليَّة ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً

---

(١) محمد فريد وجدي "السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة " الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٩

(٢) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " مرجع سابق ص ٨١

تكوَّنت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلَّت تقوم على أساس العصبيَّة القبليَّة ، وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربيَّة أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد إنما كلُّ ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس ومن هذه الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويظن أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القويَّة الكبيرة لتحميها وتردَّ عنها العدوان .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سوَّلت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدي على أحد أبنائها .

فكلُّ فرد فيها يضحِّي لها بنفسه كما يضحِّي بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديَّته وشخصيَّته وحريَّته يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبيَّة سيطرت على نفوسهم وقدَّسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينيَّة ، فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبيَّة القبليَّة فإنها خاصَّة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد .

وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبيَّة فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها ، وكانت القبيلة من جانبها تعطي لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبَّب على أتفه

الأسباب . وقد تحوَّلوا بسبب اختصامهم على المراعي واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربيَّة ، فكل كتيبة مستعدَّة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى . فدائماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا في حروبهم " (١)

لقد نظر أكثر المؤرخين إلى وضع المجتمع العربيِّ في الجاهليَّة فوجدوه مفكَّكًا سياسيًّا ينقسم إلى وحدات متعدِّدة، قائمة بذاتها، تمثّلها القبائل المختلفة، ووجدوا أنّ العصبيَّة القبيلة هي التي قضت على فكرة الترابط السياسي ، ولقد أثَّر النظام الاقتصاديُّ في النظام السياسيِّ والاجتماعيِّ. فقد كانت القبيلة هي أساس المجتمع بدلاً من الدولة. فهي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية. فليس فوقها مجتمع عندهم، وهي في معنى شعب عندنا الآن .

أمَّا في الجماعات المتحضِّرة فإنَّ التنظيم الاجتماعيَّ يرتكز على نظام عامٍّ هو التنظيم السياسيُّ أو الدولة. ومن أهمِّ أُسسها توفُّر الأرض المعنية والملك أو التملُّك. وتتعامل السلطة مع الناس، في إطار كهذا، كسكان في وحدة إقليمية كالبلدة أو البلد أو الدولة .

كان مجتمع شبه الجزيرة العربيَّة – ومعظمه من البدو . مجموعة من القبائل، كل منها يشكِّل مجتمعًا قائمًا بذاته، مستقلاً في إدارة شئونه ومعيشته وحكمه. وبفضل العصبيَّة للقبيلة أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها، والتغلب على غيرها، لتضمن لنفسها موردًا لحياتها. ولذلك

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص من ٥٧ – ٦٢ بتصرف .

كانت حياة القبائل المتبدِّية صراعًا دائمًا، والصراع هجوم ودفاع ؛ فالهجوم يتمُّ بقصد الحصول على مزيد من الرزق، والدفاع يقومون به للحفاظ على وجود القبيلة، والدفاع والهجوم يتطلَّبان التكتُّل والدخول في أحلاف مع القبائل الأخرى. ولهذا اعتُبر قانون البادية قانون الغاب، وقوامه قول زهير بن أبي سُلْمَى في معلقته .

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ

وكان ابن القبيلة يعتزُّ بنسبه اعتزازًا كبيرًا؛ إذ إنه هو الذي يحدِّدُ هُويَّته، فبدونه يتحوَّل إلى " دعيّ " وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه، وندر أن اعتزَّت أمَّة بأنسابها مثل العرب، ومن ثَمَّ يمكن الجزم بأنَّ النَّسب "ملمح" عربيٌّ أصيل ينفرد به العرب دون سائر الناس. وقد تخصص بعض الأشخاص في هذا النوع من الفن، فن حفظ الأنساب، وكانت لهم مكانة مهابة .

ويأتي على رأس القبيلة شيخها، وشيخ القبيلة رئيس بالعصبيَّة، أي أنَّ القبيلة هي التي تختار من أفرادها رجلاً تقدُّمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوُّعًا منها. والمفروض أن يكون شيخ القبيلة، كما تدلُّ كلمة "شيخ" كبيرًا في السن. فإذا كان صغير السن ثم اتَّفَقَ أن كانت له حكمة وشجاعة وثروة مضافة إلى شرف أصل قدّمته قبيلته للرئاسة .

أنّ الرئيس بالعصبيَّة (شيخ القبيلة) لم يكن يتناول من قبيلته مالاً، بل كان هو يقوم عن المحتاجين بما كان المحتاجون يعجزون عن القيام به، يُطعم الفقراء منهم ويدفع الدِّيات عن الذين لا يملكون ما يدفعونه، إذا وجبت عليهم ديَّة . أمَّا الامتياز الذي كان شيخ القبيلة يتمتع به فهو أنه كان حَكمًا في المنازعات وكان حُكمه نافذًا على الجميع .

وكانت سلطة شيخ القبيلة تعتمد، في الدرجة الأولى، على ما يتمتَّع به من مكانة وما يحظى به من احترام وتبجيل . وكانت وسيلته إلى تحقيق مشيئته هي الإقناع أكثر من الإجبار، والتأثير الشخصيِّ أكثر منه القوَّة الماديَّة. وفضلاً عن ذلك فإنَّ رئيس القبيلة لم يكن ينفرد باتخاذ القرارات في المسائل المهمَّة أو المصيريَّة، بل كان ملزمًا بدعوة زعماء العشائر والشخصيات البارزة في القبيلة إلى مجلس يناقشون فيه المسائل المطروحة، ويتخذون في شأنها ما يشاءون من قرارات، ولم يكن هذا المجلس مجرَّد مجلس استشاريٍّ، وإنما كان مجلسًا له وزنه وثقله. ولم يكن في وسع سيِّد القبيلة تجاهل هذا المجلس، واتخاذ قرار مغاير لما استقرَّ عليه الرأي فيه.

وسيِّد القبيلة بوصفه رئيسًا ينوب عنها في علاقاتها بالقبائل الأخرى. فهو الذي يرسل الوفود إلى سادات القبائل الأخرى في المناسبات المختلفة لعقد حلف، أو تفاوض، أو التهديد بحرب، أو للتهنئة أو التعزية، وما شاكل ذلك من أمور .

وكانت تجمع القبائل اتحادات "الأحلاف" ويُظنُّ أنَّ هذه الاتحادات لعبتْ دورًا كبيرًا في تكوين القبائل؛ إذ كانت تنضمّ العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وتردُّ العدوان عنه. [١]

العرب والحضارة

ليس بين أيدينا ما يدلُّ على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أن العرب الجنوبيين لم يخْطوا في طريق

---

(١) لمزيد من التفصيل حول النظام القبلي انظر محمد الخطيب " النظام القبلي عند العرب في الجاهلية" منتدى اجتماعي .

الحضارة خطى واسعة فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيِّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسي كان يعمهم النظام الإقطاعي ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنات أو الدولة الحميريَّة تحولوا إلى قبائل بدويَّة . (١)

ورغم أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كالفرس ، والروم ، مصر .. لكن فيما يبدو أن ذلك كان يجري في حدود ضيقة وأنه وقف في جمهوره عند تأثيرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم.

لعل أهم معارف العرب علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب ويلي هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم مطالعها وأنوائها وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلُّم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبيَّة ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي بالنار وفوائد بعض العقارات النباتيَّة .

وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفي من الكلب وأن عظام الميت تشفي من الجنون وأن روحاً شريرة تحل في المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرقى فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيّاً على قواعد عقليَّة، كانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهي تتبع الأثر في الأرض والرمل . (٢)

---

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٨١

(٢) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص٨١-٨٣ بتصرف

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أوليَّة ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسَّس على قاعدة ولا على نظريَّة ، فهم في جمهورهم بدو، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلي مؤسَّس على أسلوب علمي ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العِيافة وهي التنبؤ بملاحظات الطير وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا سيتقسمون بالأزلام والقداح وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلي عندهم كان ضعيفاً وأنهم لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطا محكماً .

وهذا طبيعي فقد كانوا في طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلِّة والمعلول ، وكانوا لا يتعمَّقون في بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ولا يتعلَّقون بمدركات كليَّة أو نظرة شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . (١)

العرب والسياسة

لم تضم العرب قبل الإسلام دولة موحدة ذات نظم حاكمة ، وقوانين عامة مطبقة ، فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم قديما وحديثا ، مرد ذلك إلى نزعة الفردية التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص٨٥

حاكم عام ضعفا وجبنا ، فقبول لحكم غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد

يقول الحارث بن عباد

قَد مَلَكناكُمُ فَكونوا عَبيداً ما لَكُم عَن مِلاكِنا مِن مَجالِ

وهم يعدون الخضوع لسلطان ملك خزي وعار لذا فهم دائما ما يؤكدون في أشعارهم عدم خضوعهم لسلطان الملوك ، وأنهم كثيرو المنازلة لهم والتغلب عليهم .

عمرو بن كلثوم

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصيَنا المَلكَ فيها أَن نَدينا
وَسَيِّدِ مَعشَرٍ قَد تَوَّجوهُ بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا
تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صفُونا
إِذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفاً أَبَينا أَن نُقِرَّ الذُلَّ فينا
نُسَمّى ظالِمينَ وَما ظُلِمنا وَلكِنا سَنَبدَأُ ظالِمينا

ويقول المهلهل بن ربيعة

لَم نَرَ الناسَ مِثلَنا يَومَ سِرنا نَسلُبُ المُلكَ غُدوَةً وَرَواحا

ويقول امرؤ القيس

فَما مُلكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى بِمُقتَدِرٍ وَلا مُلكُ الشَآمِ
أَصَدَّ نِشاصِ ذي القَرنَينِ حَتّى تَوَلّى عارِضُ المَلِكِ الهُمامِ

ويقول عنترة

وَسائِلي السَيفَ عَنّي هَل ضَرَبتُ بِهِ يَومَ الكَريهَةِ إِلّا هامَةَ المَلِكِ

إن مجد العربي الذي يفاخر به ، والذي يظل العمر كله يدافع عنه ، ويورثه لأبنائه من بعده هو السيادة والحرية التي تتنافى مع الإذعان

لأي حاكم وإن كان من بني جنسه ، والخضوع لأي قانون وإن كان فيه مصلحته .

مفهوم السيادة عند العرب

إن روح الفردية ، والأنا المتضخمة ، والكبرياء الزائفة ، وغمط أصحاب المواهب هي التي جعلت العربي يرفض أن يعيش في مجتمع الحكم فيه لغيره وإن كان أهلٌ له ويعتبره عبودية ومذلة ، ويفضل شق عصى الطاعة والعزلة ويعتبر ذلك سيادة وعزة !!

يقول زهير بن جناب الكلبي

أَبَنِيَّ إِن أَهلِك فَإِنّ ... ي قَد بَنَيتُ لَكُم بَنِيَّه
وَجَعَلتُكُم أَبناءَ سا ... داتِ زِنادُكُم وَرِيَّه

فالسيادة لدي العربي تعني التمرد على القوانين العامة ، والتمرد على نظام الدولة ، وعدم الخضوع للأحكام الملوك . مما أدى إلى تفكك المجتمعات العربية ، وضعفها ، وتخلفها ، وعدم قيام أي حضارة على أرضها ، لأن الوحدة والتعاون والنظام هي عماد أي حضارة والعربي يفتقر عليها جميعا " واتسمت المجتمعات السياسية التي قامت على قواعد النظام القبلي بضيق الأفق ، وقصر عمر المؤسسات فيها ، إذ بقيت القبيلة هي الوحدة السياسية العليا ، وشيخها هو الرئيس الأعلى ، دون أن تسمح النظرة القبلية الضيقة بانطلاق الأحلاف الكبرى نحو بناء مجتمع واحد .

فكان شيخ القبيلة يجد في تلك النظرة الضيقة ينبوعاً يغذي روح الفردية والأنانية السياسية والسبيل إلى الخروج من أي مجتمع سياسي قد تضطره الظروف إلى الانضمام إليه وغدت صورة الحياة القبلية في بلاد

العرب قبل بعثة الرسول الكريم صورة بناء متداع، وما صاحب هذا التداعي من الفوضى في جميع النظم التي سيطرت على تلك الحياة . فانهارت الممالك القبلية في بلاد اليمن بسبب التنافس بين الأقيال والأزواء وخضعت لسلطان القوى الأجنبية التي استغلت ذلك التنافس" (١)

إن أكبر آفة ابتلي بها العرب قديما وحديثا آفة الفرقة والصراع على الحكم ، والخروج على الحكام ، وغلبة روح الفردية ، والخروج على النظام العام ، وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة .

رأي ابن خلدون في العرب وسياسة الملك

لابن خلدون رأي في علاقة العرب بسياسة الملك ، وهو أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ويعلل رأيه هذا فيقول :

" والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالاً في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج إليهم غالباً لعصبية التي بها المدافعة فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم .

وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته وأيضا فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتحافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي " تاريخ العالم الإسلامي " ص٤٤ مكتبة الأنجلو المصرية .

في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعاً وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه .

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم .

كان رستم إذا رأى المسلمين مجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وامحي رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود

والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته إلا تخويب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء " [1]

وزبدة القول في موضوع العرب والسياسة أن العرب لم تضمهم قبل الإسلام دولة موحدة ذات نظم حاكمة ، وقوانين عامة مطبقة ؛ فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم المتحضِّرة قديماً وحديثاً ، ومردُّ ذلك إلى نزعة الفرديَّة التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة حاكم عام ضعفاً وجبناً ، فقبول حكم صادر من غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد .

صفات العرب الحميدة

ومع ذلك فإن البدوي يتمتع بثلاث خصال حميدة لا ينفك عن ذكرها في أشعاره وهذه الخصال هي : الشجاعة ، والكرم ، والبلاغة . فالبدوي قوي البنية شجاع القلب لا يبالي بالمخاطر في القتال ، ولا يبيت على وتر ، ولا يرضى بالذل والهوان .

صفة الشجاعة

من أبرز سمات العربي عن غيره سمة الشجاعة ، وعدم الرضا بالذل والهوان .

([1]) مقدمة ابن خلدون ج١ ص ١٥٢ دار القلم بيروت – لبنان

يقول المتلمِّس :

إنَّ الهَوانَ حِمارُ القَومِ يَعرِفُهُ والحُــرُّ يُنكِرُهُ والرَّسلَةُ الأُجُدُ
وَلَن يُقيمَ عَلى خَسفٍ يُسامُ بِهِ إلاّ الأَذَلاّنِ عَيرُ الأَهلِ وَالوَتِدُ
هَذا عَلى الخَسفِ مَربوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذا يُشَــجُّ فما يَرثي لَهُ أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئا مثل إنكارهم للهوان والضيم فهما السوءة الكبرى والمثلبة العظمى وكان أقل شعور بهما يثيرهم .

لكن شجاعة العربي هذه كان كثيراً ما كان يسيء استخدامها بسبب قوة انفعاله وضعف عقله ، مما حولها إلى تهوُّر طائش مما نتج عنه كثرة الحروب التي تدور بينهم على أتفه الأسباب ، والتي تمتد لسنوات طويلة ، وهي غالباً منازعات فردية لكن بسبب العصبية القبلية تتحول إلى معامع بين القبائل فكل قبيلة كانت تناصر دائما كل فرد فيها ظالماً أو مظلوماً .

فما هي إلا أن يقتل أحد منهم فإذا سيوف عشيرته مسلولة وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته تؤازرها في الأخذ بثأرها ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارث الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل . (١)

ولعل أكبر وأطول حربين في تاريخ العرب الجاهليين تؤكد هذا فحرب " داحس والغبراء " كان السبب في نشوبها رهان على فرسين فسميت باسميهما ، وقصة البسوس كان السبب في نشوبها ناقة لسيدة تدعى

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " دار المعارف ص ٦٢

البسوس خالة جساس بن مرة سيد بكر قتلها كليب سيد تغلب فلما علم جساس بقتل ناقة خالته ثار لكرامتها وقتل كليباً . وبرغم تفاهة داعي الاقتتال وفرديته إلا أنه تحول إلى معامع قبلية استمرت عشرات السنين.

صفة الكرم

الصفة الحميدة الأخرى التي يتسم بها العربي هي الكرم ، فلعربي كريم لدرجة لا نظير لها فهو لا يضن على ضيفه بما عنده من لحم جزور أو أي طعام فإن لم يجد خرج ليصطاد له فإن لم يجد هم بذبح ابنه طعاماً لضيفه .

وهو إذ يفعل ذلك إنما يفعله ليمدح بالكرم ، ولا يذم بالبخل الذي كان أكبر مذمة هو والجبن وضعف القبيلة ، وخسة الأصل . ولعل هذه الأبيات التي قالها الخطيئة توضح بجلاء إلى أي مدى بلغ الكرم مداه عند العرب . وقصيدة الخطيئة تحكي لنا عن أعرابي لم يذق طعاماً منذ ثلاث حتى تحول أولاده إلى ثلاثة أشباح وإذا به يرى ضيفاً وسط الظلام فتجهز لاستضافته وكاد يهلك أسى لأنه لا يجد ما يقدمه لضيفه ، فاقترح عليه ابنه أن يذبحه ليطعم الضيف هذا خير من تعيير الناس أباه بالبخل ، وكاد الرجل أن يفعل إلا أنه رأى قطيعاً من حمر الوحش قد اكتنزت لحماً وأطبقت شحماً فاصطاد إحداها ، وأطعم ضيفه وسلم من المذمة .

رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَسَوَّرَ وَاِهتَمّا
وَقالَ اِبنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ أَيا أَبَتِ اِذبَحني وَيَسِّر لَهُ طُعما
وَلا تَعتَذِر بِالعُدمِ عَلَّ الَّذي طَرا يَظُنُّ لَنا مالاً فَيوسِعُنا ذَمّا
فَرَوّى قَليلاً ثُمَّ أَجحَمَ بُرهَةً وَإِن هُوَ لَم يَذبَح فَتاهُ فَقَد هَمّا

فَبَينا هُما عَنَّت عَلى البُعدِ عانَةٌ قَدِ اِنتَظَمَت مِن خَلفِ مِسحَلِها نَظما
عِطاشاً تُريدُ الماءَ فَانسابَ نَحوَها عَلى أَنَّهُ مِنها إِلى دَمِها أَظما
فَأَمهَلَها حَتّى تَرَوَّت عِطاشُها فَأَرسَلَ فيها مِن كِنانَتِهِ سَهما
فَخَرَّت نَحوصٌ ذاتُ جَحشٍ سَمينَةٌ قَدِ اِكتَنَزَت لَحماً وَقَد طُبِّقَت شَحما
فَيا بِشرَهُ إِذ جَرَّها نَحوَ قَومِهِ وَيا بِشرَهُم لَمّا رَأَوا كَلمَها يَدمى
فَباتَوا كِراماً قَد قَضوا حَقَّ ضَيفِهِم فَلَم يَغرِموا غُرماً وَقَد غَنِموا غُنما

صفة البلاغة

أما صفة البلاغة فهي أهم ما نبغ فيه العرب عامة والأعراب خاصة لذا جاءت معجزة النبي ﷺ الذي بعث فيهم في البلاغة فكان القرآن الكريم الذي أعجزهم ، والمعجزات دائما تكون من جنس ما اشتهر المرسَل إليهم به ، ولما كان العرب طبقت شهرتهم الآفاق في البلاغة والفصاحة والبيان ؛ فقد تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨]

فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود : ١٣]

وأخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٣ ، ٢٤]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس : ٣٨]

إذن البلاغة هي أعظم ما أنتج العرب ، بها اشتهروا ، وفيها تنافسوا ، وعلى أساسها تفاخروا ، وعن طريقها تكسبوا " بل أن قيمة الشعر الجاهلي ، تصاعدت حتى أصبحت تعادل قيمة الأصل الروحي والقومي للأمة العربية ، إبان صراعها مع الثقافات الوافدة ، وخلال معارك الدفاع ضد الشعوبية " (١)

فالشعر العربي كان مفخرة العرب – ربما – الوحيدة لذا لا عجب أن رأينا أعداء العرب القدماء (الشعوبيون) " كانت تبذل قُصارى جهدها للنيل من الشعر الجاهلي تارة عن طريق الطعن في نسبته .. وتارة عن طريق إثارة عواصف من النقد والتجريح تحط من قيمة موضوعاته وأساليبه متهمة إياه بالبداوة والفقر والمحدودية .. وغيرها من الصفات السلبية التي تهدف في الحقيقة إلى إدانة الإنسان العربي في عين ذاته وتجريده من مواهبه في الإبداع والرقي الفكري والاجتماعي " (٢)

***

(١) " موسوعة الشعر العربي " مطاوع صفدي وإيلى حاوي ص ٥ الناشر شركة خياط للكتب والنشر .
(٢) نفسه ص ٦ .